مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السادس
1989م.

الدعوة إلى الإسلام

الدكتور: التهامي نقره
جامعة الزيتونة - تونس

الدعوة إلى الإسلام:

إنّ تفتُّح الإسلام على الحياة نابع من منهجه الشامل الذي يستوعب كل ألوان النشاط، مادياً كان أم فكرياً، كما أنّ الدعوة المستمرةَ إليه تفرضها رسالته التي تَوَّجَتْ رسالاتِ السَّماء وانتهت بها إليها.

فالمؤمنون برسالة محمد ﷺ همُ خلفاؤه في الدعوة إلى دينه الحنيف، وبثّ تعاليمه في قلوب الذين لم تبلغهم رسالته، أو لم يعرفوا حقيقتها، كما قال في خطبته عند حجة الوداع: «ألاَ فليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب».

والمشاهدة التي تُوجب الإعلام، تَشْملُ من حضَر عهدَ النبي ﷺ، وأشرقت عليه أنوارُه بِلقائه، ومن علِم بما جاء في القرآن، وبعلْمه صارت النبوة بين جَنْبَيْه، فقد شاهد الرسولَ بقلبه، وإن لم يشاهده بعينيْه، فكان عليه التبليغُ، ليعمَّ هذا الوجودَ الإعلامُ به.

وقد توعَّد الله الذين يكتمون ما أُنزل الله من عِلْمِ الكتاب في قوله عز وجلّ: ﴿ إن

الذين يكتُمون مَا أَنْزَلْنا من البيِّنَاتِ والهدى من بعدِ مَا بيَّنّاهُ للنَّاس في الكتاب، أولئك يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُم اللَّاعِنُون ﴾ (سورة البقرة 159) وفي الحديث ما يحُثُّ على نقل أقوال الرسول إلى الاجيال من بعدِه، حتى تعمَّ هدايتُه بالرواية عنه، وتبليغ شرْعه[1].

فقد روى الشافعي أن رسول الله ﷺ قال: «نضّر الله عبداً سمع مقاتلي، فحفظها ووعاها وأداها، فرب حامل فقه غيرُ فقيه، ورب حامل فقه إلى مَنْ هو أفقهُ منه. ثلاث لا يغل عليهن قلبُ مسلم: إخلاصُ العمل لله، والنصيحةُ للمسلمين، ولزومُ جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائهم».

ثم إن الإسلام بوصفه رسالة الله إلى الانسانية ما بقيت الحياة، يمثل بمبادئه العالميَة، وبقرآنه الخالد، وبشخصية رسوله المثالية، فكرةً حية في ضمير الزمن. فلن ينطفىء نورُه، وإنْ تألّبتْ عليه الطواغيت، وقَويَ الشّرُّ، لأَنّهُ إنسانيُّ الخصائص والوجهة، أقيمت دعائمه على مبادىءَ ثابتة، وكلّيات لا تتبدَّل، وكانت فيه مع ذلك مرونة التجديد، وقابلية التطور، وتفتح الاجتهاد في إطار مبادئه وكليّاته.

يقول (قوت) المفكّر الالماني: «إن هذا القرآن سيبقى إلى الأبد مُنيراً للفكر الانساني، قويَّ التأثير».

وجدّةُ القرآن الكريم ما تزال باقية ماثلة أمام كلِّ تقدم فكريّ بلغتْهُ الحياة حتَّى اليوم، وهو كما كان جديداً على عقل إنسان القُرون الأولى، عند نزوله، فإنه بإشراقِه، وبما أتى به في مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على أقوم الأصول، وأرسخ الدعائم، سيظلّ جديداً على مرِّ العصور والأجيال[2].

لذلك أوْجَبَ الله أن تعيش الدعوة إليه. وأن يكون الدّاعي ترجمةً حية لتعاليمه، وأنموذجاً كاملاً لهدايته، حتى تنعكس آثارها على القلوب النقية التي خصها الله بالقابلية، ولا سيما في هذا العصر الذي شاعت فيه عاداتٌ وأخلاق، وظهرت سبلٌ ومنعرجات، وتفشّى الجهل بأحكامه، فاشتبهت الطرق، وتنوّعت الفتن والمغريات، وانتشرت المذاهب الفلسفية والاجتماعية والاخلاقية، وأدخلت الحضارة المادية مفاهيم جديدة في

(1) محمد ابو زهرة: الدعوة إلى الإسلام: 30 (ط. دار الفكر: 1973 .

(2) عبد المنعم خفاجي: الإسلام والحضارة الإنسانية: 277 (ط بيروت 1973).

الحياة، فزَّيف الملحِدون قيَمه في نفوس المسلمين، للحيلولة دون بعث إسلامي جديد ﴿ يريدون أنْ يُطفِئُوا نورَ الله بأفواههم. ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نورَه ولو كره الكافرون ﴾ (سورة التوبة: 32).

إنّه الانتخاب الطبيعيُّ الذي تقوم به الحياة، والاستجابة الطبيعية لنداء الفطرة السليمة، واليقظَة الاسلامية الرائعة في المشرق والمغرب وانجاز وعدِ الله الصادق بعزّة كتابه، وسيادة دينه في الأرض.

ألا فليعلم الدُّعاةُ إلى الله، أن مِنْ أشدِّ الدعوات الإسلامية تأثيراً وإيحاءً حال المسلمين أنفسهم في سلوكهم ومعاملاتهم، وتفكيرهم وثقافتهم، وتطوُّرهم وحضارتهم. ودعوتهم إلى الإسلام بأخلاقهم وأعمالهم، أبلغ من دعوتهم إليه بخُطبهم ومقالاتهم.

ثم إنّ أساليب الدعوة يجب أن تكون لها صبغةُ المعاصرة، حتى لا تعيش في غربة، ولا يكفي استعمال ما ظهر في هذا العصر من وسائل الإعلام، وأساليب الدعاية في كتب منشورة، وصحف سيَّارة، وإذاعة مرئية ومسموعة، وأفلام معروضه وخطب حماسية، إذا لم يُخاطَب الناسُ بلغة العصر التي يتأثَّرون بها، ويتجاوبون معها، ولم تُنشَر حقائقُ الإسلام بين أهله، وفي رُبوع الذين لم يدخلوا فيه، بمنهجية وذوق وفَنّ وموضوعية، تنفي عنه تحريفَ الغَالين فيه، وتحامل الجافِين عنه، وتُنصفه من تعصّب المحبين، وإفتياتِ الحاقدين.

فإنّ من أشد الإساءات إلى الإسلام أن تُلصَق به تشويهات زَرِيّة، أو يُلْبس أثواباً مزوَّرة تطبعه في نفوس البسطاء من أدعياء التطور والثورية، بطابَعِ السّذاجة والرجعيّة، دون تمييز بين الأصيل والدخيل، ولا بين الحقيقة والزيف، حتى ترسخ في الأذهان صُوَر عنه منفِّرة، كما ترى ذلك أحياناً في تمثيل شخصية المأذون والمؤدب والقاضي الشرعي على المسرح، أو على الشاشة ما يجعل منهم أضحوكة وسخريّة للعابثين، الذين يتتمون شكلاً إلى الإسلام، ولكن علاقتهم به واهية، لا روح فيها لا قداسة.

وما أكثر المسلمين الذين يعيشون اليومَ بين غربة روحية، وازدواج في الشخصية، وانفصام عن الذاتية.

قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطُوبى للغرباء» (أخرجه

البخاري عن أبي هريرة).

فقد كان الرجل في الجاهلية ـ إذا أسلم ـ غريباً بين أهله وعشيرته الذين يجفونه ويتوعَّدونه، كما صار المسلم اليوم غريباً بين أقوام يتهافتون على الدنيا، وقد طغت عليهم أهواؤهم، فضلوا وأضلوا، ولم يجد الدِّين منفذاً إلى قلوبهم، مثلَمَا وجدت الحضارةُ الماديةُ المعاصِرة.

ويُعجبني في هذا الصدد ما ذهب إليه الشيخ المراغي في تفسيره الحديث عند تقديمه لكتاب محمد حسين هيكل (حياة محمد): (إنّ غربة الإسلام في بدئِه أنّه ظهر وقويَ في المدينة، ولم تكن دار الإسلام الأُولَى بل هي دارُ غربة له، بالنسبة إلى مكةَ. وغُربتُه في آخر الزمان: أن يَعتريَه ضعف بعد أن ظهر، ثم يعود إلى الظهور بين أقوام غرباءَ عنه من غير أهله، فيقيِّض الله له أُمَّةً قويَّةً تدين به وتحميه، ويعود بها إلى الظهور من جديد.

وسواء فسَّرنا غُربةَ الإسلام في آخر الزمان بقلّة ما يعمل به المسلمون من تعاليمه، أو بضعف المسلمين وهوانهم، أو بضعف الوازع الديني في ضمائرهم، أو بغرابة مبادئه على النفوس، فإنها لا تَخرج في مجموعها عن غربة الإسلام الروحية والفكريَّة في نفوس بعض المسلمين، ممّا نشاهد بعضَه اليوم من تنكُّر لمبادئه ونُظُمه وأحكامه وتشريعاته، رغم ما نراه في الوقت ذاته، من إقبالٍ على اعتناقه في أوروبا وأمريكا وإفريقيا.

وقد قال المطران الانكليزي «دافيد براون» وهو ممَّن عُرِفَ بدراساته الإسلامية: (الإسلام دينٌ يعتنقه اليوم مليون شخص من مواطنينا البريطانيين)[3].

وفي السنة الماضية اعتنق الإسلام مُعظَم سكان قريةٍ بأنكلترا.

وكان ممَّا يَلفت النظر اهتمامُ الصحف والمجلّات في الغرب، وفي الولايات المتحدة الامريكية بتحليل عوامل اليقظة الإسلامية وأبعادها وأهدافها، في خضمِّ هذا الصراع الفكري والعقَدي الحادّ، الذي تميَّز به العصر، خصوصاً حول قضايا المجتمع الاقتصادية والثقافية والسياسية، على تفاوتٍ بين الكتاب والباحثين من حيث الموضوعية والنزعات

(3) مجلة المختار ع 17 ـ 1400هـ المسلمون في أوروبا: 12.

الشخصية، ومن حيث التجرد والنزاهة، والأحكام المسبقة والدسّ[4]...

وقد تجلّت ظاهرة الاهتمام الغربي بالإسلام ومستقبله بعد احداث ثورة إيران، وبعد دعوة المؤتمر الإسلامي كافّةَ الأقطار الإسلامية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر، وإعداد برامجَ لهذه الاحتفالات تحفُز الهِمم، وتُحيي العزائم، وتَبعث الروح النضالية من أجْل مستقبل أفضل، وهذا الإعدادُ سيُعطي نفَساً جديداً للدعوة الإسلامية يكفل استمرار جهود التوعية والإحياء والتنمية، بل سيضاعفها، ويزيد في دَعْمها وتطويرها تبعاً لتطور الفن الإعلامي بالصورة والكلمة، كما أوصى بذلك المؤتمر الإسلامي في اجتماع اللجان الوطنية بمكةَ المكرمة سنة 1978.

لقد أضحى الإعلام في هذا العصر وسيلةَ توجيهٍ للأفراد والجماعات بالغةَ الأثَر. حتى أصبح ـ أو كاد ـ أداة استلاب واستيلاء على الأفكار والعواطف. في ترويج النظريات والمذاهب، بل وترويج البضائع والمنتجات للاستهلاك، فكيف لا تتطور وسائل الدعوة إلى الإسلام؟

ثمّ إنّ تأثير الدَّاعي بشخصيته اللاَّمعة، وصحّته النفسية، وإشعاعه العلمي والروّحي، وبما يملك من قدرة، على التحليل والبيان والإقناع، ومن عمق في التفكير، وإلمام بمشاكل العصر وقضاياه، واطّلاع على الثقافات المعاصرة، وما يروج فيه من مذاهبَ فلسفية، وإيديولوجيات اجتماعية، كلُّ ذلك من أقوى العوامل الأساسية التي تمكِّنه من أداء رسالته على النحو المأمول، وتفتح له آفاق الدعوة، وتشُقّ له طريقَ النجاح، كما فتحها من قبلُ علماءُ أعلام لَمَعتْ أسماؤهم قديماً وحديثاً، مثل: الغزالي، والبصري، والأفغاني، والمودودي وغيرهم ممن أحيوا الضمائر، وأيقظوا المشاعر، وأنعشوا روح الايمان في أعماق الوجدان، وجعلوا من الإسلام بسلوكهم وبتفانيهم في خدمته ترجمة حيَّة له، وصورة ناطقة عنه.

ومن هنا، فإنه لا يكفي لأجيالنا الصاعدة الحماسُ الفيّاض وحدَه، إن لم نجعل نحنُ من الإسلام نِبْراساً نسير على هَدْيِهِ في يومِنا الراهن، وفي غدنا المرجوّ، وإلا أصبح هتافاتٍ

(4) انظر مثلاً: الجريدة الفرنسية: الليموند LE MONDE في اعدادها الصادرة في 11-21-13.

نفسيةٍ عابرة، وهزّاتٍ عاطفيةً خاطفةً، فاقدةً لكلّ أثر إيجابي، أو نفع عمَليّ في حاضرنا المشهود، ومستقبلنا المنشود[5].

عقبات في طريق الدعوة:

والعقباتُ التي تعترض طريق الدعوة ونجاحها وتأثيرها كثيرةٌ ومتنوعة، منها ما يتصل بالبيئة السياسية والاجتماعية، ومنها ما يرجع إلى شخصية الداعي ومواقفه من قضايا العصر.

فالمجتمعاتُ التي أخذت الحضارةُ الماديَةُ من أصالتها وتقاليدها كل مأخذ، وأذابتْها في بوتقتها، فسرَى فيها التفسُّخُ والانحلال، لم يجد الدّين منفَذاً إلى قلوب أبنائها، لأنها رانَتْ عليها الأهواءُ والنَّزوات واشتد بها حبُّ الدنيا، فأعرضت عن تعاليم السَّماء، وأخلدتْ إلى الأرضِ.

وقد نجد في هذه المجتمعات التي أفسدها زيْفُ الحضارة، وشغلها القِشْرُ عن اللُّباب، علوماً وخبْرات لدى بعض أبنائها، ولكنها للمساومات الأجنبية، وللمكاسب الشخصية. وكم تركت هجرةُ الأدمغة عن البلاد النامية من فراغ، رغمَ ما أنفقتْه من جهود وأموال في تكوينها!

كما نجد في هذه المجتمعات قوةً وشوكة، ولكن للبغي وقهر المستضعَفين ومقاومة حرية الانسان الأساسية. وقد تكون فيها ثروات، ولكن للترف والتفاخر والاستعلاء وقد يكون فيها ذكاء، ولكن للمؤامرات والاحتيالات، بحيث لا تُوَجَّه هذه الطاقاتُ الحيّة وجهةً سليمة، تنفعُ الأمة وترفَعُ من شأن الوطن.

وفي مثل هذه المجتمعات المتْرَفَة، أو المبهورة بحياة الغرب، أو المجذوبة بتيارات العصر، سيجد الداعيةُ عقباتٍ في الطريق، فلا بدَّ له من التحلّي بالصبر والأناة والثبات والمثابرة، والاعتزاز بقيمَ الإسلام الخالدة ونشرها بين الناس.

ومصاعب الدعوة في أوساط المترَفين المتحلِّلين، أنهم يُطلقون لأهوائهم العنان، ويُرْخِصُون القيمَ العليا التي لا تعيش المجتمعات الرّاقية إلا بِهَا وَلَهَا، ويَعيشُون في الأرض

(5) محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية: 73 (ط الكويت 1969).

فساداً، ويُحوِّلون النفوس بتأثير العدوى والاغراء إلى أدوات تستهلك ولا تُنتج، وتتمتّع ولا تتْعب.

وطبيعة هذا المرض الذي يكون من أعْراضه اللّهوُ والفَراغ والإسراف، أنّه يُفقد القلوبَ تلك الحساسيَّةَ التي بها تتلقى وتتأثّر وتستجيب، فتضيق بحياة الكدّ والجدّ لأن المُتَرفَ مريض بالنعيم والرخاء، لا يستطيع أن يخوض غمرات الحياة على ما هي عليه من عُسْرٍ ويُسْرٍ، ورَجلُ الحياة هو الذي يلابسها كما هي في جميع أوضاعها وتقلباتها.

وقد أدرك المربون في الأمم الغنية المتقدمة ضرورة مقاومة أمراض الترف لدى أبناء الأثرياء، فحاولوا علاجه بالجندية، وبالرياضة العنيفة، وبالرحلات الشاقة، والمغامرات في مجاهل الأرض وأعماق المحيطات[6].

ومن نشاطات بعض المجتمعات الإسلامية أنه يوجد فيها إلى جانب هؤلاء المترفين طبقة بائسة شمل تفكيرها شعورها بالهوان والحرمان، ومع ذلك، يستنزف جهدها ويجف عودها، وتستغل طاقاتها، ثم يرمى بها حطاماً في زحمة الحياة.

إن هؤلاء التعساء تائهون عن حاضرهم: فضلاً عن غدهم. وهيهات أن يؤدي الدين رسالته، أو تثمر تعاليمه في جو خانق، وفي بيئة عقيمة! وكيف يستطيع الواعظ أن يملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية من الغذاء، أو يكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عارياً؟ بل الواجب قبل كل شيء أن يؤمن على ما يقيم أوده كانسان، ثم ينتظر بعد ذلك أن تغرس في قلبه مبادىء الايمان.

يقول الشيخ محمد الغزالي: (كثيراً ما عالجت وعظ الناس في بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل، فكنت أحار... ماذا أقول لهم)؟

هل أقبح لهم الدنيا كما يظن أنه مفروض على علماء الدين؟ والدنيا لن تكون أقبح مما هي عليه في أعين هؤلاء التعساء وحاجاتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة أمسُّ من حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الإسلام، وجمهورهم لا يدري الأساليب الصحيحة للزراعة والصناعة والتجارة، فضلاً عن أن يعرف كيف يعامل ربه وإخوانه وحكامه!

---

(6) التهامي نقرة: سيكولجية القصة في القرآن: 285ط تونس 1974.

أعرفهم بالله عز وجل؟ ومعرفة الله لا سبيل إليها إلا بعد معرفة النفس، فإن من عرف نفسه، عرف ربه. وهؤلاء التعساء ذاهلون عن أنفسهم...)[7].

وإذا لم يكن الداعي ملماً بالمشاكل الاجتماعية القائمة في بلده، لا يهتدي إلى طريق العلاج والحل، ولا يكون موضوعياً في دعوته، ولا يحسن اختيار الموضوعات الحية ولا ترتيبها بحسب الأولويات، وبحسب الظروف. فقد يكون في التذكير والتعريف بمبادىء العدالة الاجتماعية في الإسلام كالتكافل الاجتماعي، وتكافؤ الفرص بين الجميع، والتخطيط الاقتصادي الذي يقرب إلى العدل في توزيع الثروة واستثمارها، ما فيه تبصرة لأولي الأمر الذين لا يستغنون عن التذكير والنصح ممن لا ينتصب إلى زعامة، ولا يدخل في خصومات ولا يثير الفتن.

وقد قال عليّ كرم الله وجهه: (إن للقلوب شهوات وإقبالاً وإدباراً، فائتوها من قِبَلِ شهواتها وإقبالها، فإنّ القَلْبَ إذا أُكْرِهَ عَمِيَ عن الحقيقة).

فالداعي مصلح بالتوعية، والتوجيه. وليس الإصلاح تعنيفاً، ولا اساءة، ولا إثارة أحقاد، كما أنه ليس من الحكمة في الدعوة فصلها عن هموم المجتمع وشواغله، وعزلها عما يستأثر بإهتمام الأمة، وإلا انفصل الدين عن الحياة، وأضحت الدعوة إليه عملاً هامشياً، قليل الجدوى، لا يمد ضياء ولا يحل مشاكل.

فالحكومات الإسلامية التي ترى في الزحف الأحمر خطراً عليها وعلى الإسلام، يجب تبصيرها بأن شرارة الخطر، إنما تنقدح من الداخل، قبل أن تأتي من الخارج، وذلك عند انتشار البطالة والفقر والحرمان، مع تفاقم الثراء والترف عند طبقة محظوظة، وانعدام ما يكفل حاجات المواطن الضرورية، وما يصون وجهه وكرامته في بلد تدر عليه ثروته الطبيعية ما لا تدره على بلد أوروبي، ويرتفع فيه الدخل القومي للفرد ارتفاعاً يدعو إلى المقارنة والتساؤول والبحث عن مصدر العلة.

فاصلاح الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الداخل كفيل بتحقيق الرقي والاستقرار ودعم الأمن، والوقاية من الانتفاضات، التي تهدر الطاقات، وتسيل الدماء، وتشل حركة التنمية، وتوقف سير الحضارة!

(7) الإسلام والأوضاع الاقتصادية: 40-41 (ط ـ مصر 1952).

ولا ننسى أن من الحلقات المفقودة في أنظمتنا الاجتماعية، الوعي العام اليقظ، الحارس للقيم المعنوية في الجماعة، الذي يشكل بدوره رأياً عاماً يرهبه المسؤول. ويجعل كل باغ على حق غيره، وكل خائن لأمانته، وكل معتد على الفضيلة، وكل أناني مهمل لواجبه، وكل خارج عن الآداب في صورة من الصور، يشعر بالحرمان من عطف المجتمع وتقديره، وبخزي الضمير، تحت نظرات السخط والمقت، وبسهام النقد لتصرفاته اللامسؤولة وهي تصوب نحوه، حتى يراجع نفسه، ويعدل من سيرته، ويصلح ما أفسد، ويتدارك ما فات.

وللرأي العام الواعي دوره الخطير في التصدي لسلوك الرعونة والطيش، ومواقف الإثم والبغي، وتصرفات الباطل والفساد. فنحن في حاجة إلى رأي عام أخلاقي له نفوذه واحترامه في نفوس كل الافراد، بحيث يشعر كل امريء أن إساءته دقت أو جلت، ولا سيما المسؤولون، ستلاقي جواباً سريعاً علنياً في سلوك المجتمع بإزائه، ونظرته إليه[8].

ومن يستطيع تكوين الرأي العام وتربيته في البلاد الإسلامية مثل الدعاة إلى الحق والمثل العليا، أولئك الذين يبدؤون النصيحة بالحسنى لكل من زلت به قدمه، فيذكرونه كلما نسي، وينبهونه كلما غفل دون صلف أو رياء أو مغالاة.

ومن معوقات الدعوة، ما نرى بين الدعاة أنفسهم من اختلاف في الرأي والحكم اختلافاً يثير الشك والبلبلة، أكثر مما يعبر عن تنوع وجهات النظر في قضية من القضايا الدينية، إذ ليس منشأ الاختلاف النظر والاجتهاد بل منشؤوه، شخصية الداعي، وما يتسم به من تفتح أو تزمت، ومن اعتدال أو تطرف، ومن التزام حرفي بالنص، أو من تصرف في حدوده، بحسب الظروف والاوضاع. وكثيراً ما يزج بنفسه فيما ليس من اختصاصه فينتصب للافتاء، ويحكم بالتحليل أو التحريم فيما يحتاج إلى تفصيل وتقسيم، وكل ذلك مما يؤدي إلى خصومات تعرض الدعوة إلى الشك وسوء التأويل.

وما انتشر الإسلام إلا بأصالة المنهج الذي سار عليه أصحاب رسول الله ﷺ بحسن فهمهم للإسلام، وتطبيق تعاليمه بالقدوة، والدعوة اليه بالحكمة كما أمر القرآن.

وإذا كانت الكليات الاساسية والمبادىء العامة في الدين هي موضع اتفاق في

---

(8) محمد عبد الله دراز: في الدين والاخلاق والقومية 109 (ط مصر 1967).

الغالب، ينتهي فيها الجدل بعد أن قال الله كلمته الحاسمة، فإن الرأي المبني على الاجتهاد، لا يجوز أن يتحول إلى عقيدة تسمو عن النقاش، فإن آراء الناس تختلف اختلافاً كبيراً في الشؤون الاجتماعية والسياسية في هذا الخضم الهائل من الصراع الأممي الايديولوجي، وتنازع النفوذ الدولي. فما يصلح لقوم، قد لا يصلح لآخرين، وما يصلح لهم في وقت قد لا يصلح لهم، في وقت آخر[9]. . . ، ومحاولة التغيير الكلي السريع كثيراً ما تبوء بالفشل الذريع وتفت في العزائم، وتبعث على اليأس والتشاؤم!

فالمصالح الدنيوية المتداخلة تتفاقم، ومشكلات العصر المعقدة تتراكم، والمجتمعات الإسلامية لها خصائصها ومشاكلها التي تتفاوت في أهميتها من زمن إلى زمن، ومن بلد إلى بلد، وبعضها ما يزال يتأرجح بين فكر أصيل موروث، هو الفكر الإسلامي، وما تنبثق عنه من قيم روحية؛ وفكر دخيل روجته الحضارة المادية المعاصرة يطرق النفوس في عنف القوي، ومغالطة المسيطر ونستخدم في شيوعه مختلف الوسائل الحضارية الفنية المغرية التي تتلقفها القوى المحلية الاعلامية، فلا تترك مجالا لتأثير التوجيه الديني أو تدع الداعين، إلى القيم الإسلامية في مظهر الضعيف المتخلف الذي لا يقوى على الحياة، فضلاً عن المواجهة[10].

وليست الدعوة في هذا العصر خطباً حماسية تمجد الإسلام، وتندد بكل ما جاءت به حضارة العصر جملة وتفصيلاً، وتنقم على الناس، وتتهمهم بالمروق والكفر تارة، وبالانحراف والجاهلية أخرى، ولا هي قائمة من الأوامر والنواهي ومطالب الاصلاح والتغيير، فإن هذا المنهج قد يفسد ولا يصلح، وقد يقطع أواصر الود مع الناس، لأنه يحقر أعمالهم، ويجعل الذين لا يوالونهم ولا ينتمون إليهم خارجين عن الجماعة الإسلامية على اعتبار: (من ليس منا، فهو خصم لنا) بل أن الاتصال بهؤلاء في الدعوة أوكد لمحاولة كسبهم والافادة منهم. ولا يجوز بحال التعالي عليهم، فإن مزالق الغلو والغرور والصلف تنأى بأصحابها عن تأليف القلوب، وتقريب النفوس. ذلك أن عناصر المجتمع إزاء الدعوات والأفكار ثلاثة أصناف: مؤيد، ومحايد ومعارض. ومنهج الدعوة في مضمونه الحركي يقوم على المحافظة على ولاء الموالين، ومحاولة كسب المحايدين والمترددين، والسعي إلى تحييد

(9) محمد الغزالي. . الإسلام في وجه الزحف الاحمر: 26 (ط بيروت).

(10) محمد البهي: غيوم تحجب الإسلام: 95-59-96 (ط: دار الفكر 1973).

المعارضين. ومن هنا فإن الداعي لا يجوز له أن يتجاهل الناس من حوله، أو يقصر علاقاته على الموالين وحدهم[11].

فالمقومات الاساسية للدعوة، معرفة وفن واخلاص وهيهات أن ينهض بأعبائها في هذا العصر من افتقد أحد مقوماتها أو جلها، أنه قد يسيء إليها وإلى الإسلام من حيث لا يشعر.

ولماذا يتصدى للدعوة من لم تكن له قدم راسخة في العلوم الإسلامية، أو لم تكن له خبرة بطرق العرض العصرية، وأساليب الاقناع والتأثير، في حين يقعد العلماء الاكفاء القادرون عن أداء هذا الواجب؟

أليست الدعوة الإسلامية فريضة دينية ترجع إلى قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

أليست تدرجاً في معاملة النفوس بالحسنى، واقتراباً من واقع الناس طلباً لهدايتهم؟ فقد قبل النبي ﷺ من ثقيف إسلامهم، واشترطوا ألا صدقة عليهم ولا جهاد.

فأين هذا التيسير ممن تغالوا، فنفروا وكفروا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؟ قال ﷺ «يسروا ولا تعسروا وسددوا وقاربوا». ونهى أصحابه عن قولهم لمن شرب الخمر: أخزاه الله، وعلمهم قائلا: «لا تقولوا هكذا، ولا تعينوا عليه الشيطان».

يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ يستعينه في شيء، فأعطاه. ثم قال: «أحسنت إليك؟» قال: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار عليهم أن كفوا، ثم قام فدخل منزله، ثم أرسل إلى الاعرابي، فدعاه إلى البيت، فزاده شيئاً، فرضي. فقال: ﷺ «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، وقلت ما قلت. وفي أنفس المسلمين شيء من ذلك، قم إن احببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك»[12]. قال: نعم، فلما كان الغداة جاء. فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم هذا كان جائعاً، فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه، فزعم إنه قد رضي، أكذاك؟».

قال الاعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

---

(11) مجلة المسلم المعاصر: عدد: -19سنة 1395م. ص:10.

(12) ابن كثير السيرة النبوية: 56/4 (ط القاهرة: 1966).

فقال النبي ﷺ: «إلا إن مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له ناقة، فشردت عليه فأتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا ارفق بها فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الارض، فجاءت فاستناخت، فشد عليها رحلها واستوى عليها. وإني لو تركتكم حين قال الرجل ما قال، فقتلتموه، دخل النار»[13]. وصدق رسول الله ﷺ فإنه يؤخذ بالرفق واللين ما لا يؤخذ بالشدة والعنف.

إن هذا الركام الذي ارتكس فيه المسلمون وكان حجة على الاسلام، وقف عائقاً بينه وبين من يَلْتَمِسُ الحق فيه، وهو يحتاج في تصفيته إلى مخططات وجهود، حتى لا يتهم الإسلام بالجمود والانعزالية، أو بعدم القدرة على الحركة الهادفة المنظمة، لمتابعة الاحداث المتجددة، والعكوف على مسائل ثانوية أو هامشية أو جزئية بالنسبة لقضايا الإسلام الكبرى في هذا العصر، تلك التي تفجر في الأمة طاقات القدرة على العطاء والاختراع والإبداع، وتحريك التاريخ، وتقديم الحلول العملية الواضحة. فإن الصحوة الإسلامية لم يعد يتسع صدرها للنزعة الدفاعية، أو الاعتذارية التي ينكفىء أصحابها على جوانب العظمة في ماضيهم، ويكثرون على مسامع الدنيا، إنهم جديرون بالتقدير والاعتبار، شعوراً بنقص دفين، وبالعجز عن مواجهة المنافسين والخصوم بالمثل. وهي في جوهرها مسلك سلبي هروبي عن الحاضر والمستقبل؛ ولا للنزعة الهجومية التي تكتفي بلعن الزمان وإدانة الجميع.

ذلك أن الحياة لا بد أن تستمر وأن تسير. وحركتها سنّة من سنن الله، لا يملك أحد أن يقف في وجهها أو يردها إلى الماضي، وإنما يحتاج الناس من دعاة الإسلام أن يقدموا لهم بديلاً حقيقياً مما هم في حاجة إليه ويطلب منهم إلغاؤه. وهذا هو التحدي الحقيقي الذي يواجه دعاة الإسلام. وليسوا وحدهم يتحملون المسؤولية وإنما يشاركهم فيها جميع العلماء والمجتهدين وأهل الذكر في علوم الدين والدنيا على السواء.

أما إذا بقي المسلمون عاجزين عن تقديم السلوك البديل، والنظام البديل والمنهج البديل، فإن الدعوة إلى الإسلام لن تستقل بعقول الناس وقلوبهم إلا بقدر ما يكتشفون العجز الذي يعانيه المسلمون عند البناء والممارسة والتطبيق[14].

وهنا يكمن خطر ازدواج الشخصية الذي يعانيه المسلمون. ومن واجبنا أن نعمل على التخلص منه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

(13) ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى: 424/2 (ط مصر: 1966).

(14) أحمد كمال ابو المجد: مجلة المسلم المعاصر: ع: 19 س:1399 ص: 27-28.